

الكثافة السكانية (الازدحام)

تعد الكثافة أكثر العوامل تأثيراً في تحديد الدرجة التي يشعر عندها الأفراد بالازدحام، فالكثافة هي عدد الأشخاص في كل وحدة من وحدات الحيز أو المساحة، على سبيل المثال، عدد السكان في كل دولة أو عدد الشقق لكل وحدة سكنية أو عدد الوحدات السكنية في الدونم الواحد من الأرض، مما يجعل لها تأثيرات مختلفة على مشاعر وسلوك الأفراد، وبينما تشير الكثافة إلى حالة فيزيقية موضوعية فإن الازدحام والذي هو حالة سلبية غير سارة يشير إلى حالة سيكولوجية ذاتية يترتب عليها حدوث مشاعر سلبية، ويحدث الازدحام عندما يدرك الفرد أن هناك عدد كبير من الأشخاص في حيز ما، ويتأثر إدراك الازدحام في بيئة ما، بشخصية الفرد، والعلاقات بين الأفراد، والعوامل الموقفية، مثل درجة الحرارة والضوضاء والرائحة، بالإضافة إلى طبيعة المهام التي يتم تأديتها في تلك البيئة.

وتزايد الاهتمام بدراسة موضوع الكثافة السكانية نظراً لخطورة الآثار المترتبة على السلوك البشري في المناطق ذات الكثافة العالية، واجريت العديد من الدراسات السكانية، كدراسة انتشار انواع معينة من الجرائم في بعض المدن، ودراسة تأثيرات تصميم المدن، ودراسة تأثيرات تصميم الأماكن المختلفة مثل الصف الدراسي، المستشفى ... الخ، وهذه جميعها تعتبر مظهراً من مظاهر الاهتمام الذي يتزايد بقضية الكثافة السكانية او ازدحام البشر في مكان ما وتأثير ذلك على سلوكهم.

وتعرف الكثافة السكانية، بأنها نسبة عدد السكان إلى مساحة مكانية معينة، والسكان هنا كل من يستخدمون المكان بصفة دائمة أو مؤقتة، ويوصف المكان بأنه مزدحم سكانياً اذا ما زاد عدد مستخدميه عن المستوى الذي يوفر لكل منهم شعوراً بالراحة وعدم المضايقة والقدرة على استخدام المكان للغرض الذي خصص من اجله.

أن الباحثين الأوائل في الازدحام البشري كانوا متأثرين بالدراسات التي أجريت على الحيوانات والتي كشفت عن عواقب سلبية للازدحام، وتجاهلوا الدراسات التي تشير إلى أن الكثافة العالية قد لا تكون دائماً لها آثار ضارة، أن مثل تلك الآثار تتحدد على ضوء الظروف التي يعيشها الفرد وقدرته على التكيف مع تلك الظروف وليس فقط على المكان أو مستوى الكثافة السكانية فيه، فالفرد لا ينظر الى المكان كشيء مادي بحت انما

ينظر اليه في ضوء الغرض أو العمل الذي من اجله يستخدم المكان، وفي ضوء العلاقات بين الأفراد الآخرين المشاركين له في نفس المكان، فقد يقبل الفرد التواجد وسط عدد يقدر بالأف في ملعب كرة قدم دون أن يشعره ذلك بالضيق او عدم الراحة بينها لو زاد عدد رواد المكتبة عن عدد المقاعد فيها قد يكون ذلك سبباً كافياً لخروج عدد من القراء مباشرة لانهم لا يشعرون بالهدوء الذي يجعلهم يركزون على ما يقرأون.

تأثير الكثافة المرتفعة على الإنسان

أن التقنية البحثية المتبعة في دراسة تأثير الكثافة المرتفعة على الانسان، تتم على وفق منحيين الاول قصير المدى والثاني طويل المدى، وتميل الدراسات قصيرة المدى لأن تكون تجريبية، حيث يقوم الباحث عشوائياً بتكليف المفحوصين المرور بظرفين أو أكثر من الظروف التجريبية، والتي تختلف طبقاً للكثافة المكانية في الموقع الذي تحدث فيه التجربة، وقد تستغرق الجلسة 30 دقيقة أو عدة ساعات، وما يؤخذ على هذه الدراسات أن قصر التجربة والطبيعة الاصطناعية للموقف تحد من مقدار تعميم نتائج هذه الدراسات على مشكلات الناس الذين يعيشون في ظل ازدحام دائم في بيئات حقيقية، وعلى الرغم من ذلك فإنها تبقى ذات قيمة لأنها الطريقة الوحيدة الصادقة للكشف عن العديد من المتغيرات الديموغرافية والموقفية، التي تمتزج أو تختلط في معظم الدراسات طويلة المدى والتي تهتم بتناول استجابات الافراد الذين يعيشون تحت ظروف كثافة عالية لفترات طويلة، وعادة ما تكون هذه الدراسات من نوع البحث الاجتماعي - الارتباطي، وتتضمن مؤشرات ارتباط احصاء كثافة السكان في بقعة ارض مع تكرار السلوكيات الشاذة، وهذه الدراسات تنتظر بصورة عامة الى الارتباطات بين نتائج السلوكيات الشاذة، ومؤشرين للكثافة احدهما الكثافة الداخلية والآخر هو الكثافة الخارجية، وقد اخفقت الدراسات الاجتماعية - الارتباطية المبكرة في السيطرة على عدد من المتغيرات التي قد تتباين مع الكثافة مثل الثقافة وغيرها، الا ان الدراسات المتقدمة استطاعت السيطرة احصائياً على هذه المتغيرات. وستناول عدد من الدراسات التي تناولت تأثير الكثافة المرتفعة على عدد من المتغيرات.

اولاً. تأثير الكثافة المرتفعة على الشعور والاثارة والمرض

1. الشعور /

اجريت دراسة ميدانية طلب من المفحوصين سلسلة من المهمات في محيطات مزدحمة وغير مزدحمة، ولوحظ ان المفحوصين سجلوا قلقاً في الظروف المزدحمة اكثر مما في الظروف غير المزدحمة، كما وجدت دراسة اخرى ان مجرد توقع وجود الفرد في ازدحام يثير مزاج سلبي لديه، وتم قياس الفروق في الشعور كدالة على عدد الاشخاص الاخرين الذين يعتقد المفحوصين انهم سيكونون معهم في نفس المكان عندما تبدأ التجربة.

وهناك ثلاث متغيرات تتعلق بتأثير الكثافة المرتفعة (الازدحام) على الشعور وهي:

أ . المتغيرات الموقفية/ وتتضمن عوامل متعلقة بالمكان، كعدد الناس في مكان معين.

ب . المستجبات الشخصية/ كقدرة الفرد على التحكم بتفاعلاته مع الغير او تجنب التعامل معهم.

ج . العوامل النفسية/ صفات الفرد الذاتية وخبراته واهميتها في تحديد اذا كان يشعر بالازدحام ام لا.

2. الاثارة الفسيولوجية /

قامت احدى الدراسات بوضع مجموعة من المفحوصين في غرفة واسعة ومجموعة اخرى في غرفة صغيرة لمدة ثلاث ساعات، وتم تسجيل معدل ضربات القلب وضغط الدم للمفحوصين قبل بدء التجربة، وبعد مرور الساعات الثلاث أشارت النتائج الى ان المفحوصين الذين كانوا في الغرفة الصغير (كثافة مرتفعة) اظهروا تسجيل لمعدل ضربات القلب وضغط الدم أعلى مما لدى المفحوصين في الغرفة الواسعة، وفي دراسة اخرى هدفت التعرف على الفرق بين الذكور والاناث في تأثير الكثافة المرتفعة تمت مقارنة مستويات الكوليسترول (كمؤشر على الضغوط) لدى عينة من الطلبة امضوا يوماً في منطقة مزدحمة مع طلبة تواجدوا في منطقة أقل ازدحاماً نسبياً، وعند المقارنة مع المجموعة الضابطة، كان الذكور الذين تواجدوا في المنطقة المزدحمة لديهم مستويات كوليسترول مرتفعة مقارنة بالذين تواجدوا بالمنطقة الاقل ازدحاماً بينما لم يسجل لدى الاناث هذا الفرق.

3. المرض /

اشارت احد الدراسات الى ان هناك ارتباط بين تسجيلات الكثافة المرتفعة (الازدحام) ومراجعة الافراد الى المراكز الصحية، ووجدت دراسة اخرى ان مراجعة المراكز الصحية في مناطق الكثافة المرتفعة تكون اكثر مما في مناطق الكثافة الاقل.

ثانياً. تأثير الكثافة المرتفعة على السلوك الاجتماعي

1. سلوك المساعدة /

وجدت احدى الدراسات ان الكثافة المرتفعة تؤدي الى سلوك مساعدة اقل من خلال مقارنة السلوكيات الايجابية في المناطق ذات كثافة مرتفعة ومتوسطة ومنخفضة، اذ تم القاء ظروف عليها طابع وعناوين في المناطق ذات الكثافات الثلاث، وتم قياس سلوك المساعدة عن طريق عدد الظروف التي تم التقاطها وارسالها في البريد، واشارت النتائج ان 58% تم ارسالها في البريد في المناطق ذات الكثافة المرتفعة و 79% في المناطق ذات الكثافة المتوسطة و 88% في المناطق ذات الكثافة المنخفضة.

2. العدوان /

اشارت نتائج بعض الدراسات إلى أن الكثافة المتزايدة تؤدي إلى عدوان أكثر، في حين وجدت نتائج دراسات أخرى عكس ذلك، ووجدت مجموعة ثالثة من الدراسات انه لا يوجد تأثير للكثافة على العدوان، وتوصلت دراسة اخرى الى أن الكثافة المرتفعة بصورة معتدلة ادت الى عدوان متزايد لدى الذكور، واكتشف مجموعة أخرى من البحوث تأثيرات الكثافة على عدوان البالغين، وعلى العموم يبدو ان الذكور البالغين غالباً ما يصبحون أكثر عدوانية تحت ظروف الكثافة العالية من الاناث، وفي إحدى الدراسات تكونت من مجموعة من الذكور ومجموعة من الاناث ضمت كل مجموعة ثمانية أفراد وضعوا في غرفة صغيرة، وظهرت نتائج الدراسة أن الذكور كانوا اكثر عدوانا في ظروف الغرفة الصغيرة بينما الإناث كن على العكس.

3. الانسحاب /

وجدت مجموعة من الدراسات أن الانسحاب قد يعمل كاستجابة توقعية الكثافة المرتفعة وكوسيلة للتعامل مع الكثافة المرتفعة المستمرة وكنتيجة بعدية لها، وعلى سبيل المثال، فإن مجرد توقع كثافة اجتماعية مرتفعة قد يثير استجابات الانسحاب لدى الفرد ويحدث الانسحاب ايضا اثناء التفاعلات في الكثافة المرتفعة المستمرة حيث يكون الافراد أكثر رغبة في مناقشة مواضيع اساسية تحت ظروف الكثافة المنخفضة، كذلك يتفاعل الأطفال والمرضى النفسيين بدرجة أقل كلما ازدادت كثافة الغرفة، لذا يبدو ان الانسحاب يمكن أن يشكل نتيجة بعدية للتعرض للكثافة.

ثالثاً. تأثير الكثافة المرتفعة على أداء المهمة

واحد من الأسئلة المهمة جدا الذي يمكن أن يطرح عن الكثافة المرتفعة هو ما إذا كانت تؤثر على أداء المهمة او لا ؟ والجواب له تطبيقات مهمة بالنسبة لتصميم كل انواع اماكن المعيشة والعمل، على سبيل المثال المصانع والمدارس وغيرها، وقد استخدمت الدراسات المبكرة لدراسة تأثير الكثافة المرتفعة على أداء مهمة ما، مهمات بسيطة وكانت متسقة فيما بينها في ان تتوصل نتائجها الى عدم ايجاد ضعف في الأداء تحت ظروف الكثافة المرتفعة، اما الدراسات الحديثة فقد استخدمت مهمات أكثر تعقيدا وتوصلت نتائجها الى وجود تأثير للكثافة المرتفعة على أداء مهمة ما.

فقد وجدت احدى الدراسات أن الكثافة المرتفعة أدت إلى ضعف في أداء مهمة متاهة معقدة، كما وجدت دراسة اخرى ضعف في أداء مهمة معقدة في غرف مزدحمة جداً مقارنة بالغرف الأقل ازدحاماً.

ويبرز هنا تساؤل مهم جداً حول ما إذا كانت الكثافة المرتفعة تؤثر تأثيرات بعدية او فورية مباشرة على الأداء، وقد اجابت احدى الدراسات عن ذلك بأن المفحوصين الذين وضعوا في غرفة ذات كثافة مرتفعة اظهروا بعد ذلك استمرار او اصرار اقل في حل الالغاز التي قدمت لهم في التجربة مقارنة بالمفحوصين الذين وضعوا في غرفة ذات كثافة قليلة.

التكيف للبيئة السكنية

يعتبر المكان الذي نعيش فيه هو احد البيئات الأكثر ألفة التي نعرفها ونلم بخصائصها، وان اسباب تكيفنا للمنزل الذي نسكن فيه هو اننا نعرف تفاصيل المنزل والطرق المؤدية اليه، والجيران المحيطين به، والادوار المطلوب اداؤها ازاء كل من هذه المثيرات، فقد اصبحنا متوجهين نحوه ونعني بالتوجه ليس فقط الاطلاع على المحيط ولكن التعامل ايضا مع المحيط، والتوجه يمزج السؤال (أين انا) مع السؤال (ماذا سأفعل) فكلما كنا متوجهين اكثر لبيئة ما كلما امكنا ذلك من الاجابة بسهولة عن هذين السؤالين، وكلما كنا اكثر ألفة مع تلك البيئة، وبما اننا متوجهين بصورة جيدة لمنازلنا فإننا نادراً ما نكون واعين لكيفية عمل هذين السؤالين في ذاكرتنا وبتحديد اين نحن وماذا سنفعل نحدد موقعنا فيما يتعلق ببيئتنا ونتكيف لها جزئياً على الأقل.

يتضمن التكيف للمنزل التوجه للجيران وكذلك لداخل المنزل نفسه، ويأتي التكيف للمنزل من معرفة اي الوظائف يجب أن تقوم بها كل غرفة من غرف المنزل، ويأتي نقص التكيف من عدم معرفة وظيفة كل غرفة أو كيفية تصرف الفرد في المكان الذي يتواجد فيه، وعند تكيف الفرد لمنزله المألوف فإنه يشعر عادة بارتياح في اداء سلوكيات مختلفة في مواقع معينة منه، وكذلك عند أداء مهمات معينة في مكان ما من المنزل، وبذلك يتم التكيف ويصبح الفرد معتاداً على منزله، فعند التكيف لبيئة المنزل تتم تنمية الشعور بالرضا اكثر والقدرة على اداء مهمات منزلية أساسية مثل رعاية الأطفال وإعداد الطعام وغيرها وكلما أمكن اداء هذه الفعاليات بسهولة وبصورة ملائمة كلما كان الفرد أكثر رضا عن محيط منزله.